وبدأ لتوه العمل في انشاء حلقات سرية . ان ما يلفت النظر في النشاط القسامي عقله التنظيمي المتقدم ، وصبره الحديدي : فقد رفض عام ١٩٢٩ الاندفاع في الاعلان عن وجوده المسلح ، وبالرغم من ان هذا الرفض قد ادى الى انشقاق في تنظيمه، الا انه استطاع ان يظل متماسكا وسريا . ويقول احد القساميين المعروفين(٦٧) ان القسام برمج ثورته في اربع مراحل : الاعداد النفسي ونشر روح الثورة ، انشاء حلقات سرية ، تشكيل لجان لجمع التبرعات ولجان لشراء السلاح ، ولجان تدريب ، ولجان امن وتجسس ، ولجان دعاية واعلام ، ولجان اتصالات سياسية . ثم الثورة المسلحة .

ان معظم العارفين بالقسام يقولون ان خروجه الى تلال يعبد مع ٢٥ من رجاله ليل ١٩٣٥/١١/١٢ لم تكن غايته اعلان الثورة المسلحة ، ولكن نشر الدعوة للثورة ، الا ان اشتباكا عرضيا ادى الى افتضاح امر وجوده هناك ، وبالرغم من استبساله مع رجاله فقد قضت قوة بريطانية على مجموعته بسهولة ، ويبدو ان الشيخ القسام ، حين شعر بانه لم يعد بوسعه توسيع الثورة مع رفاقه ، رفع شعاره المشهور : « موتوا شهداء » . ومن حق القسام ان نفهم شعاره هذا فهما « غيفاريا » اذا جاز التعبير ، ولكن على المستوى الوطني العادي ، ان سلوك القسام من خلال الشهادات القليلة التي نملكها عنه تدل على انه كان يدرك اهمية دوره كمفجر لبؤرة ثورية امامية . وما لبث هذا الشعار ان اثمر على التو : فقد شيعت الجماهير جثمان شهيدها مشيا على الاقدام الى قرية ياجور مسافة ١٠ كيلو مترات ، على ان اهم ما في الامر كان افتضاح القيادات التقليدية امام التحدي الذي مثله الشيخ القسام . وقد شعر هؤلاء القادة بهذا التحدي بنفس المقدار الذي شعر فيه الانتداب البريطاني . ويقول احد القساميين انه قبل ان يصعد القسام الى الجبال بشهور قليلة ارسل الى الحاج امين الحسيني بواسطة الشيخ موسى العزراوي يطلب منه التنسيق لاعلان الثورة في جميع انحاء البلاد ، الا ان الحسيني رفض ، بحجة ان الظروف لم تنضج بعد (٦٨). وعندما استشهد القسام لم يسر في جنازته الا الفقراء ، واتخذ الزعماء موقفا فاترا ما لبثوا ان ادركوا خطأه ، فقد شكل استشهاد القسام حدثا بارزا لم يكن بوسعهم تجاوزه بالتجاهل ، والدليل على ذلك ان ممثلي الاحزاب الفلسطينية الخمسة قاموا بزيارة المندوب السامي البريطاني بعد ستة ايام فقط من استشهاد القسام ، وقدموا له مذكرة لعلها من اندر المذكرات صفاقة ، فقد اعترفوا بـ « انهم اذا لم يتلقوا عن مذكراتهم هذه جوابا يمكن اعتباره بصورة عامة مرضيا ، فانهم سيفقدون كل ما يملكونه من نفوذ على اتباعهم ، وعندئذ تسود الاراء المتطرفة غير المسؤولة ، وتتدهور الحالة سريعا »(٦٩). فمن الواضح انهم كانوا يريدون توظيف ظاهرة القسام لتحقيق خطوة الى الوراء . على ان الشهيد القسام كان قد فوت عليهم ، بالشكل النضالي الذي قرره ، فرصة التراجع ، وهذا في الواقع ما يفسر اختلاف موقف الزعماء الفلسطينيين من استشهاد الشيخ القسام فور حدوثه عن موقفهم في الاحتفال الاربعيني باستشهاده ، فقد اكتشفوا خلال هذه الايام الاربعين انهم اذا لم يحاولوا ركوب الموجة الشامخة التي فجرها القسام ،فانها ستطويهم ، ولذلك قفزوا من الفتور في جنازته ، الى المهرجانات والخطابات في اليوم الاربعين لاستشهاده .

ويبدو ان الحاج امين الحسيني سيظل فيما بعد شاعرا بهذه الثغرة ، وحتى بعد اكثر من عشرين سنة ستظل مجلة « فلسطين » الناطقة بلسان الهيئة العربية العليا ، تحاول الايحاء بان الحركة القسامية انما كانت جزءا من نشاط الحركة التي كان يقودها المفتي ، وان هذا الاخير والقسام ، كانا « اصدقاء شخصيين »(٧٠).

اما البريطانيون فقد رووا قصة القسام في تقريرهم السنوي الذي جرى تقديمه الى لجنة الانتدابات في جنيف عن وقائع ١٩٣٥ كما يلي : « انتشرت في الجو اشاعات عن عصابة للارهاب تألفت بوحي من عوامل سياسية دينية ، وفي يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٣٥ كان جاويش ونفر من البوليس يقتفيان اثر سرقة في هضاب قضاء الناصرة فاطلق مجهولون النار فقتلوا الشاويش ... وسرعان ما ادى هذا الحادث الى اكتشاف عصابة كانت في ذلك الجوار تحت قيادة عز الدين القسام ، وهو لاجيء سياسي من سوريا ، وهو ذو مكانة ليست بالقليلة كرجل من رجال الدين ، وقد اشتبه به اشتباها قويا قبل ذلك ببضع سنوات، وقيل ان له